مدخل اولي

قليل من الفلسفة لا يضر

حينما ننظر الى الكون المادي بمنظار الفيزياء الحديثة،نجد ان الكون كله عبارة عن مجموعة ذرات حينما حاول العلماء تقدير عددها وجدوا انها لا تتجاوز على قياس معين 10 اس 80 فقط،هذا الكون تعمل الفيزياء على تحليله وتركيبه، فهي تركبه من ذرات وجزيئات وصولا الى المجرات الكبيرة التي تملأ الفضاء الخارجي، وهي تحلله من مجرات الى ذرات وصولا الى تحول الكتلة الى طاقة ذات اشكال متعددة،وسواء كانت الاجسام التي تحللها الفيزياء ذات طبيعة عضوية او غير عضوية فهي تتكون من نفس العناصر الذرية المعروفة ولكن تشكلاتها وتعقدها يختلف من جسم الى آخر فهناك الحي النامي وغير الحي الجامد.

لقد اكتشفت الفيزياء مفردات الكيمياء فكان هناك علاقات ذات اختصاص اكبر من الوحدة الذرية او الجسيمية هي الجزيئات فقام علم الكيمياء عليها وسواء كانت جزيئات عضوية او غير عضوية،فاذا كانت عضوية ولد علم البايولوجي ليتعامل معها على اساس وحدة الخلية الحية في كل الكائنات الحية واجسامها الخاضعة للنمو والموت والحياة.

ان نظرة عليا ومن بعد اعلى الى طبيعة الكون على ضوء هذه المفـردات جعل العقل الانساني علميا وفلسفيا يبحث عما يوحد وينتظم هذه الـدرجات لمفردات الكون من الذرة الى المجرة مرورا بالكيمياء والبايولوجي،لقد وجد هذا العقل التجريبي والنظري ان عنصر المادة هو التشكل الاولي الـذي يجمـع كـل هذه التركيبات من مجراتها الى ذراتها حتـى اذا دخـل العمـق الـذري وجـد ان المادة تتحـول الى طاقـة كمـا ان الطاقـة يمكـن ان تتحـول الى مـادة وهكـذا تم استنتاج قاتون انشتاين بين الطاقة والكتلة الذي يقول ان الطاقة تساوي الكتلـة في مربع سرعة الضوء،ثم وجد ان الجسيمات تولد في المعجـلات الذريـة عـبر الاصطدامات المفتعلة ثـم تتحـول مـن بعـضها الى الـبعض الآخـر وتعـود الى وضعها الاساسي بدورة كاملة وكأنها ولادة وموت، وبعد التعمق اكثـر وجـد ان المادة بالمفهوم الفيزيائي لها ضديد مـن نفـس كتلتهـا وبعكـس شـحنتها بـل وجد ان لكل جسيم ضديد حتى اذا التقى الضديدان فنيـا متحـولين الى طاقـة اشعاعية.

وهكذا وجد العقل العلمي ان المـادة لا يمكـن ان تكـون هـي الاسـاس الذي قام عليه الوجـود وانمـا يجـب ان يكـون هنـاك طاقـة سـابقة عليـه فـاذا (تكثفت) الطاقة اصبحت مـادة جـسيمية ثـم ذرات ثـم جزيئـات ثـم اجـسام عـضوية وغـير عـضوية ثـم كواكـب ونجـوم ومجرات،بـل ان العقـل العلمـي

المختبري اعاد تجربة نشوء الكون في تجارب مختبرية انطلاقا من نظرية الانفجارالكبير(البكبن).

فوجد فعلا ان تخلقات المادة لاحقة لوجود الطاقة. ثم وجد ان الطاقة المعروفة فيزيائيا على اربع اصناف فهناك طاقة نووية شديدة القوة في نواة الذرة وهناك طاقة كهرومغناطيسية بين الالكترونات ونواة الذرة وهناك طاقة الجاذبية التي تمتكها الكتلة وثقالتها واخيرا هناك طاقة اشعاعية ضعيفة في النيترونات امكن بعد فترة ان يتعامل معها والطاقة الكهرومغناطيسية تعاملا واحدا فدعيت باسم الطاقة الكهروضعيفة وبقيت ثلاثة انواع من الطاقة حتى اليوم عصية على التوحيد وينشط العلماء للبحث والتجربة مستعينين باعقد المختبرات واوسع المعجلات لصياغة نظرية واحدة للكينونة الوجودية على اساس طاقة واحدةاو حقل موحد للطاقة ولا زلنا ننتظر منذ انشتاين الذي حاول وحلم اكثر من عشرين عاما ان يجد المجال الموحد للطاقة ولكنه لم يصل اليه حتى مات.

ان انتظام العالم والكون في قوانين فيزيائية وكيميائية وبيولوجية جعل العلم يتجه الى بحث الانظمة الموحدة لهذا السياق المنتظم للكينونات المادية عضوية وغير عضوية،ولما كان البحث في المجال الموحد او الطاقة المرجعية الواحدة لم يتم حتى الآن رغم القناعة النظرية فيه،فقد اتجه العقل العلمي الى

البحث عن التشابهات والتماثلات التي يمكن ان تجمع مختلف التحولات التي تمت وتتم من تفاعلات الجسيمات الدقيقة الى العلاقات بين النجوم والمجرات بعضها مع بعض،فوجد ان هناك وحدة تنتظم كل هذه التحولات ونجدها تشارك الكون في تخليقه من بدايته كطاقة الى تكون الاجسام وصولا الى المجرات والسدم هذه الوحدة التنظيمية ذات طابع قانوني وتسود فيها علاقات رياضية دقيقة،من هنا دخلت مفردات النظم المختلفة في معمل العقل النظري ليخرج بنظرية متكاملة للتفاعلات في كل المستويات لتولد من جديد عملية بحث عن النظام الموحد لكل هذه التفاعلات والتماثلات والمشاركات فماذا وجد؟.

لقد كان النظام يتخلل كل ذرة بجسيماتها المتفاعلة المتخلقة والمعدومة وبطاقاتها الثابتة المتوزعة بانتظام حسب التفاعل والاصطدام والتوزع،ثم وجد ان هذا النظام يبدأ بسيطا عبر التركيب المادي غير العضوي ثم يتعقد اكثر في التركيب المادي العضوي ثم يتعقد اكثر في الحيوان ثم اكثر في الانسان حيث يصل الى اعقد تركيب تنظيمي عرف في الكينونات المادية وهو الجهاز العصبي الذي يمثله دماغ الانسان، ان الجهاز العصبي في الحيوان عموما هو اعقد نظام اكتشف في عالم الكينونات الحية ولكن الجهاز العصبي للانسان خصوصا هو اعقد نظام اكتشف في عالم الحياة الحيوانية كلها،لقد افرز هذا الجهاز معطيات

لايمكـن اسـتنتاجها تسلـسليا مـن عـالم المـادة الحيـة فهـو يمـارس نـشاطا (عقليا،فكريا)بمقدار ماهو فسلجيا،انه نشاط مادي الا ان طبيعته من غـير مـادة ولا يمكن اعادة استنتاجه او انتاجه ماديا،فالنظـام العقلـي،(الفكـري، الـوعي) يستطيع ان يتتبع نظام الكون مـن الجـسيم الى المجـرة فيرصـده ويقننـه ويقولبـه ويخضعه لسيطرة التغيير المطلوبة لمصلحة حياته،لقد تم افتراض ان هـذا العقـل لا يمكن ان يكون من مادة الدماغ رغم ان المادة الدماغية المعقـدة هـي خارقـة في كل التسلـسل التنظيمـي لخلـق الكـون المـادي وطاقاتـه،ورغم ان الانـسان الحامل لهذا العقل يستطيع ان يقعد في أي مكـان مـن الارض ويعلـم ويعـرف حالـة المجـرات والكواكـب البعيـدة ويرسـل الرسـائل اليهـا ويـستقبل منهـا المعلومات ويتعامل معها كما يريدمع كـل هـذا فانـه لم يـستطع ان يحـل لغـزه ويدخل في تفاصيل عمله ويعيـد بنـاء نفـسه وبـرغم قدرتـه علـى تخليـق كـل التفاعلات الحاصلة في الدماغ المـادي الـذي هـو الجانـب المـادي لهـذا العقـل ويحمل طاقاته الفكرية.

ان الكون تنتظمـه التفـاعلات والقـوانين علـى مـستوى المـادة والطاقـة وتحولاتها انما يعكس في ابسط تفاعلاته شيئا نظاميا يـستطيع العقـل ان يفهمـه بل انه يسير بانتظام عقلي خارق حيـث تقـع الاسـباب فتنـتج النتـائج بانتظـام دقيق يسير بحركة ميكانيكية اشبه بعقل ميكانيكي منه بمعطـى مـادي اعمـى،ان

الكون يسير بشكل عقلي منتظم واي خلل فيه يخلق فوضى لا يمكن ان يـدوم النظام الكوني ومادة الكون نفسها في الوجود بها.

كذلك نجد ان ظاهرة الحياة في هذا الكون كما رصـدها العقـل العلمـي نفسه على الارض تحتاج الى دقة كبيرة في خلقها والى نظام معقد جدا - قياسـا الى نظام المادة الجامدة – لكي تولد وتنمو وتستمر ويكفي مثلا على ذلـك انـه لولا الغلاف الجوي الحيوي للارض لما قامت الحياة على الارض اساسا وهـو ما نراه في ملايين النجوم والكواكب حتى الآن، إنه انتظام خاص لجـو الارض لكي يسمح بولادة الحياة كيميائيا ثـم بايولوجيـا ثـم انـسانيا بالـشكل الخـارق الذي نشاهده،،فهل يعقل بعد كل هذا الانتظام الكوني وقد خلق اعظم نظـام سيبرناتيكي حيوي ثم في الانسان بشكله الخـارق ان يكـون قائـده هـو صـدفة اعتباطية او احتمالية الفوضى الكونيـة،ولو سـلمنا بكـل الاحتماليـة المفتوحـة للانهاية فاننا لن نجد امكانيـة لوجـود الحيـاة بهـذه التـشكيلة المعقـدة وصـولا للانسان ثم لدماغ الانسان ثم لعقل الانسان البعيد عن المادة.

اذن الكون عاقل لانه نظامي والنظام هـو دليـل العقـل واداتـه وبمجـرد وجود الكون كما فهمناه فيزيائيا فان هذا يعكس عقلا وبمجـرد وجـود الحيـاة فان هذا يعكس عقلا انضج علـى المـستوى الكيميـائي وبوجـود اعقـد جهـاز نظامي في الكون هو دماغ الانسان فان هذا يعكس عقلا خارقا،امـا اذا وصـلنا

الى وجود الانظمة العقلية فان هذا يعكس ان هناك في الوجود ما هو ليس من طبيعة الفيزياء ولا الكيمياء ولا البايولوجيا،بل يتجاوز كل المعطيات المادية المعقدة ليصل الىمعطى لا نجده في المادة ولا في طاقتها ولا في نظامها،وهذا هو الانسان الخارق للوجود بقدرته العقلية خارجا عن قدرة التفسير المادي بكل معطياته لانه ليس جسدا فيزيائيا وانما شيءاكبر من ذلك بكثير انه روح اعلى رغم انف العلم المادي.

اذن فالانسان وجود مادي كجسم وكطاقة ولكنه بنفس الوقت خارق بعقله لكل وجود،ان نظام الكون كله موجود في عقله فهل ان عقله موجود في نظام الكون ايضا ليصبح الكون عاقلا عبر هذه الصفة الخارقة؟

لقد تعامل كثير من الفلاسفة والعلماء والمتدينين في الحضارات السابقة بالكون على انه كون عاقل، ثم تعامل معه آخرون على انه كون حي ثم تعاملوا مع آلهة افتراضية خلقتها عقولهم آنذاك فجعلوا للكون عدة آلآف من الآلهة بل جعلوا لكل ظاهرة كونية اله وطبقوا على الكون –حسب معلوماتهم آنذاك–مفهوم الحياة والموت على الآلهة نفسها حتى الزواج والولادة..الخ من ظواهر.واليوم فقد تم اعظم اكتشاف توصل اليه الانسان لظواهر الكون بل حتى لكيفية وجوده وكيفية انتهائه عبر معادلات الفيزياء الكونية بل انهم بحثوا في الثانية الاولى من خلقه وسياقاتها..الخ

اننا لو استعنا بمفردات الحضارات القديمة ولو استعنا بمفردات الاديان جميعها لوجدنا ان هناك مفهوما ناضجا عن الكون العاقل بل والكون الحي.وهذا يعني ان هناك وعيا حدسيا قد سبق العلم الحديث الذي اكتشف هذه الصفة مؤخرا ويستحي ان يفرض او يقبل فرض ان الكون عاقل او حي رغم كل الاستشهادات التي تقوده الى ذلك وخاصة وجودالانظمة السيبرناتيكية الموحدة على مستوى الجسيمات الذرية وعلى مستوى الخلية الحية حتى الجهاز العصبي في الحيوان ثم دماغ الانسان ومع هذا فلم نعدم من يجرؤ على ذلك على المستوى العلمي، ولعل خير دليل على ذلك ما كتبه فيرتجوف كابرا في كتابه (الطاوية والفيزياء الحديثة استكشاف التماثلات بين الفيزياء الحديثة والصوفية الشرقية)الذي اكد فيه اللقاء على مستويات عديدة بين الفيزياء الحديثة والصوفية الهندية والصينية واليابانية..الخ على مستوى النظم والمعارف والنظرة الى الكون ...الخ وقد اشار في مقدمة الكتاب الى (ان وعي الانسجام العميق بين النظرة العالمية للفيزياء الحديثة ونظرات الصوفية الشرقية تبدو الآن كجزء متكامل لتحول ثقافي ضخم جدا ادى الى ظهور رؤية جديدة للواقع سوف تحرز تغيرا اساسيا في افكارنا ومفاهيمنا وقيمنا ص14) ويضيف (انني وطيد الثقة باطروحتي لان التماثلات بالصوفية الشرقية لا تظهر فقط في الفيزياء بل ايضا في البايولوجيا والعلوم الاخرى،وفي دراستي

العلاقات بين الفيزياء وهذه العلوم وجدت ان الامتداد الطبيعي لمفاهيم الفيزياء الحديثة الاخرى مشروط باطار نظرية الانظمة،فاكتشاف انظمة المفاهيم في البايولوجيا والطب والسيكولوجيا والعلوم الاجتماعية التي تحدثت عنها في كتابي (المنعطف) اظهر لي ان مقارنة الانظمة تدعم التماثلات بين الفيزياء والصوفية الشرقية،يضاف الى ذلك ان الانظمة الجديدة للبيولوجياوالسيكولوجيا تشير الى تشابهات اخرى مع الفكر الصوفي الذي يقع خارج نطاق الموضوع الاساسي للفيزياء ص15–16 ن م) وهكذا يصل في خلاصة كتابه الى القول (ان النظريات والانماط المبدأية للفيزياء الحديثة وصلت الى نظرة الى العالم متماسكة داخليا ومنسجمة كل الانسجام مع نظرات الصوفية الشرقية) وهو يشير الى طابع النظرة العلمية التي هي الميكانيكية ليضع مقابلها العضوية التي هي طابع النظرة الصوفية ويؤكد ان النظرية العضوية اكثر تأصيلا من الميكانيكية.

ان النظرة الى الكون باعتباره كلا موحدا نجده يخدم الفيزياء بمقدار ما خدم الافكار الدينية وهو ما توصل اليه العلماء على مستوى السايكوفيزياء مثلما توصل اليه علماء الذرة ومنظريها يقول فريتجوف كابرا (من اقوى التماثلات مع الصوفية الشرقية هو التحقق ان مكونات المادة والظواهرالاساسية التي تشملها هي كلها مترابطة بحيث لا يمكن فهمها

كوحدات منفصلة بل كاجزاء لكل واحد،ففكرة (الترابط الكمومية)...اكدها بور وهيزنبرغ من خلال تاريخ نظرية الكم على أي حال تجدد الاهتمام بها خلال العقدين الاخيرين عندما تحقق للفيزيائيين ان الكون في الواقع قد يكون مترابطا بطرق اذكى مما كان يعتقد المرء من قبل،فالنوع الجديد من الترابطية الذي ظهر حديثا لم يدعم التشابهات بين الفيزيائيين ونظرات الصوفية فقط بل ايضا يضع احتمالا لربط فيزياء مادون الذرة بالسيكولوجية اليونغية بل ربما حتى بالباراسيكولوجيا ويلقي ضوءا جديدا على الدور الاساسي للاحتمال في فيزياء الكم ص281 ن م).

ان ما توصلت اليه نظريات الفيزيائيين هو نفس ما توصلت اليه النظرات الدينية في الحضارات القديمة (ان الكون متواشج تواشجا اساسيا يعتمد بعضه على بعض ولا يقبل الفصل).ان النظرة العلمية الجديدة بدأت تفهم ان العلاقة بين الجزء والكل صارت اكثر تناسقا فهي تعتقد انه بينما خصائص الجزء تسهم بفهم الكل الا انه في الوقت نفسه يمكن لخصائص الاجزاء ان تفهم فهما كاملا من خلال ديناميكية الكل فالكل اولا وحالما تفهم ديناميكيته نستطيع ان نستخلص مبدئيا خصائص نظرية الكم،لقد دهش الفيزيائيون انهم اليوم لا يستطيعون استخدام فكرة الجزء –كالذرة والجسيم– بالمعنى الكلاسيكي فالاجزاء لم يعد بالامكان تحديدها اكثر من ذلك انها تبدي

خصائص مختلفة وذلك بناء على السياق التجريبي، لقد بدأ الفيزيائيون تـدريجياً يتحققون إن الطبيعة في المستوى الذري لاتبدو إنها كون ميكانيكي مركب مـن لبنات بناء اساسية بل بالاحرى من شبكة من العلاقات وانه لا وجود لأجـزاء اطلاقاً في هذه الشبكة المتداخلة. ان مفهوم ان الكتلة هـي شـكل للطاقـة،انهى مفهوم الجوهر المادي من العلم،وأنهى معه مسألة البنيـة الاساسـية فجـسيمات ما دون الذرة غير مصنوعة من أي شيء مادي انها نماذج مـن الطاقـة والطاقـة على أي حال مرتبطة بالنشاط وبالعمليات وهذا يتضمن أن طبيعـة جـسيمات ما دون الذرة هي طبيعة ديناميكية فطرية وعندما نراقبها لانرى أي جـوهر ولا أي بنية أساسية، مانراه هو مجـرد نمـاذج ديناميكيـة يـتغير الواحـد الى الاخـر – رقص مستمر للطاقة. وهكذا وصل العالم الى نظرية التعضيد الذاتي الـتي نجـد صورتها الكاملة في الفكر الشرقي الـصوفي والـديني عمومـا،ان هـذه النظريـة تقول ان الطبيعة لا يمكن ارجاعها الى وحدات اساسية كلبنات البناء الاساسـية للمادة بل لابد ان تفهم كليا من خلال التماسك الذاتي فالاشياء توجد بفضل علاقتها المتماسكة المتبادلة وكل فيزياء يجـب ان تنبـع مـن مطلـب ان مركباتهـا يتماسك واحدها مع الآخر ومـع نفـسها –فـالكون المـادي علـى ضـوء هـذه النظرية الحديثة يظهر كشبكة ديناميكية من الاحداث المتداخلة واي خـصائص

لاي جزء من هذه الشبكة لا تعتبر اساسية فكلها تنبع من خصائص الاجزاء الاخرى والتماسك الشامل لعلاقاتها المتبادلة تقرره بنية الشبكة كلها..

واذا اردنا ان نتحدث عن التعامل التكنلوجي مع العضوية او الحياة فاننا سنجد كثيرا من التداخلات بين الطاقة وخاصة الكهرومغناطيسية والنووية وبين الجسم الحي،فبعد ان عجزت التكنلوجيا ان تخلق الحياة في المادة الجامدة بل وعجزت عن تفسير الحياة ووجودها في عالم المادة نجدها وخاصة على المستوى الطبي تتعامل مع الانظمة الموحدة في كل من الجسم الحي كنظام سيبرناتيكي وبين اجهزة التقنيات الخاصة التي تزرعها في الجسم،ان اقامة علاقة على اساس الانظمة السيبرناتيكية بين الجسم الحي والاجهزة التقنية وخاصة الطبية جعل البايوالكترونكس يقوم على اساس علمي سليم فالعلم لم يستطع ان يقفز هوة الحياة ليخلق اجهزة حيوية من مادة غير حية ليزرعها في الجسم فيتقبلها، لذا التجأ الى انجاز هذه المسألة عن طريق خلق انساق معينة من الاجهزة التي تدخل الجسم كمادة ميتة الا انها حاملة للطاقة مع نظام توافقي لوظائف الجسم الفسلجية لاعادة خلق الصحة بدل المرض.

ان البايوالكترونكس هو علاقة مادية في الجسم الحي، علاقة تقوم بها الالكترونيات والكهربائية كطاقة وجهاز مادي بوظيفة حيوية داخل الجسم،وهذا لا يعني خلق حياة في المادة وانما استمرار مسيرة نظام الحياة

وظائفيا في الجسم،ان خصوصية الحياة الجينية للكائن الحي وتفرد كل كائن حي بطبعة خاصة بروتينية –جينية جعل عملية زراعة الاعضاء ذات صفة قد تؤدي الى رفض الجسم للعضو الغريب المزروع فيه لانه ليس من هويته الجينية –البروتينية،ومن الغريب ان الجسم يقبل بالغريب الآلي –الجهاز البايوالكتروني – فيقيم وظائفه وفسلجته بسياق طبيعي صحي مع ان هذا الجزء الآلي المادي ابعد ما يكون عن التركيب العضوي وابعد ما يكون عن الحياة ولا يقبل العضو الحيوي المنقول من جسم آخر.

ان مصداقية الاجهزة البايوالكترونية الحديثة تظهر من خلال فهم نظرية التعضيد الذاتي على المستوى الفيزيائي والعضوي. فالعالم من الذرة فما دونها الى المجرة فما فوقها يتوحد في النظام ويقبل الترابط على مستوى الانظمة ولكنه يرفض الترابط على اساس مادي بالمفهوم الكلاسيكي للمادة.ان عملية الاستنساخ تكشف عظمة الكينونة الحيوية والعضوية النموذجية قياسا الى تخليق المواد اللاعضوية،ان الخلية والجسم يقبلان التعامل مع التكنلوجيا الطبية حتى اعادة عملية التكاثر آليا ولكنه يرفض الترقيع العضوي كل ذلك لا بسبب التركيب المادي وانما بسبب عدم التوافق في الانظمة الداخلية التي تخلق البروتينات وجيناتها الخاصة،فهل ستبقى الحياة عصية على المادة الى النهاية رغم كل التقدم العلمي والتقني الحديث ورغم تخليق عناصر مادية غير مخلقة

طبيعيا؟ ام انه قد تلين تحت تعذيب المختبرات والتفاعلات الغريبة عن الطبيعة التي يجريها علماء العالم؟ في كل الاحوال ستبقى هذه الخصوصية لنظامية العالم تشير الى ان المنظم واحد وان وراء كل الانظمة عقلا مدبرا اكبر من كل المقاييس وزن الامور بميزانه الدقيق فقال (وكل شيء خلقناه بقدر) وقال (والسماء رفعها ووضع الميزان، الا تطغوا في الميزان)؟ فهل ترانا فاعلين؟